مكتبة مصر بالفجالة تقدم
من مجموعة
محمد وصحبه



الأصم

إعداد

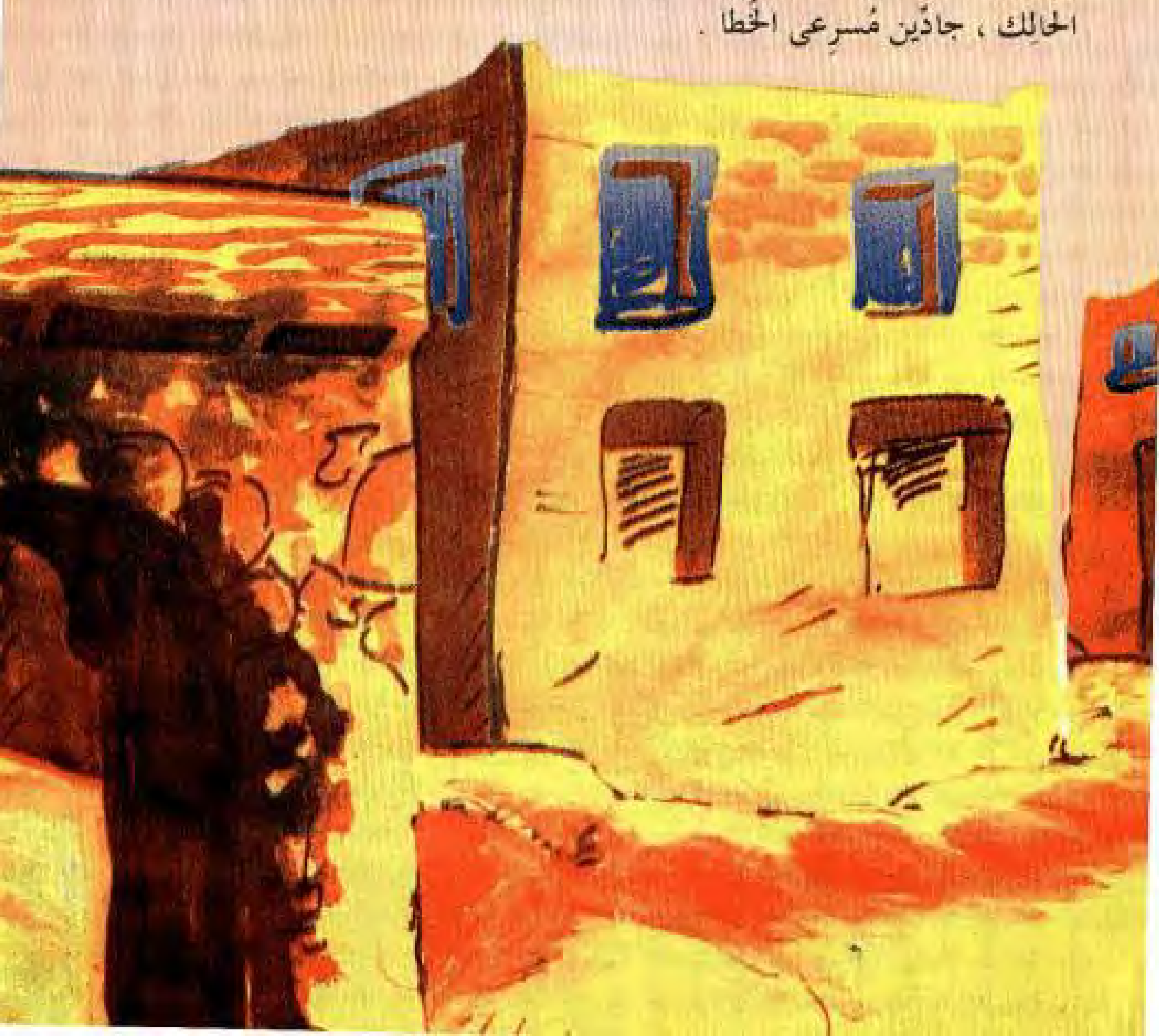
أمير سعيد السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت : ٥٩٠٨٩٢٠ - فاكس : ٥٩٠٧٥٩٣

انفضّ مجلس رسولِ اللّه صلّى اللّه عليهِ وسلّم بعدَ نِقاشٍ كثيرٍ ، أثبتَ فيهِ بالدّليلِ الحقّ والبُرهانِ الأكيدَ أنه لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له وأنّه محمّدٌ ﷺ رسولَ اللهِ إلى العالمين ليُخرجَهُم مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ ، وقدّم البرهانَ والدّليلَ على ذلِك ، فملأ قلوبَ وعقولَ الحاضرينَ بنورِ الإيمان .

وتفرّقَ جمْعُ الصّحابةِ رضوانُ اللّه عليْهم ، وقدْ ملأ كلٌّ منهُم قلبَه وعقلَه علمًا وفضلاً ونوراً ، وهدايةً وبراً ، وهُم الحريصونَ أشدّ الحرصِ على ما يبديه الرّسولُ الكريمُ من رأيٍ ، ويشرحهُ من أحكامٍ ، ويفصله من غوامضِ الكتابِ العزيزِ ومتشابهه .

وسار اثنانِ مِنَ الصّحابةِ في جنحِ الظّلامِ ، فكانا كشبحينِ يقطعانِ ذلِك اللّيلَ الحالِك ، جادّين مُسرعي الخُطا .





كانا سابحَيْنِ فى ذَلِكَ العالَم النُورانِىّ البديعِ الرّائعِ ، الّذِى يـأْخذُ بمجامعِ القلوبِ ، وحنايا الأفئدةِ ، وقد وَجد كلٌ منهُما فى خيالِه وتصوراتـه لـذة ً ومتعـة ونعيمـا ، إذْ كان يعرِضُ ما كانَ فى مجلسِ الرّسولِ الكريمِ صورة صورة على مخيلَته ، ويراجـِع مـا حدثَ كلمةً كلمة فى تَمْتمـة وحـرص ، وخيالـه يواتيـه فـى سهولةِ ويسـرِ ، وكأنـه يعرِضُ صورًا جديدة حيّة على شاشةِ بيضاء ، لها فى نفسِه موضِع القداسَـة ، ومكـان التوقيرِ والاحترامِ ..!!

وكانَ منزِلُهما لا يَزال بعيداً ، وقدْ هدأت الحركَةُ ، وسَكَن الصـوتُ ، وشَمِل المدينـةَ الرّحبَة صمتٌ غريبٌ . وهبّت نسْمةٌ رخيّةٌ ، فكـانتْ هى النّعيمُ والهناءَةُ والمتْعةُ وسَط ذلِكَ الجوّ المأزوم ، الّذى يُضايِق الأنفاسِ ، ويكاد من شدةِ وطأتهِ يُزهِقُ الروح .. !

وارْتطمت قدَم أحدِهما فكادَ يهْوى مُكبًا على وجْهِه ، لوْلا أن تداركَه اللّه بلطفِهِ فأخَذَ صاحِبَه بعضُده قائلا :

ـ باسم اللّه الّذِى لا يضرُ مَع اسمِه شىءٌ فى الأرضِ ولا فى السماءِ وهـو السّـميعُ العليمُ ... ماذا يا أخى ؟.. أهمٌ يضنيكَ ؟.. أم حُزْنٌ يُرهِقكَ ؟.. أم مالٌ يشْغَلك ؟!

ـ لا شىْء من هذا ، والحمدُ للهِ ..

ـ إذن فأى شىء والطَّريقُ مَعْبدٌ ، والصِّراطُ سَوِىٌّ لا عِوجَ فيهِ ولا ضَلال !؟

ـ تَفكير ، ولَكِن فى أحبّ شىء ، وشغلٌ ، ولكن بالآخِرة الباقيةِ لا الأولى الفانيَة ، ولله الحمدُ على نعمائهِ وآلائهِ .

ـ للهِ درُّكَ ، أنْعِمْ بكَ من صاحبٍ ، ولكنْ هـل فى إبداءِ ما تُخفى ، وإظهارِ ما تُبطن مانع ؟

ـ لا ، وربّ الكعبةِ ، وهلْ عنكَ يُكتمُ الحديثُ ويُطوى الخبر ، ويُمنَع السّرُّ مهما كان ؟



- إذن فهاتِ ما عندكَ مشكورًا ، وستكون عليه بعونِ الله مأجورًا .
- إنّي مُحدثُك على شريطة أن تُعلن لى رأيك صريحًا .
- وذلك دأبى ، وعليهِ طُبعت .

وتريّثا قليلا ، وأخذَ صوتٌ رقيقٌ حذِر ، يقصُّ على صاحبه الحديث :

- فى الواقع يا صاحبى ، أنّى قد ضِقتُ ذرعًا (بثابتَ بنِ قَيْس) فإنّه حينَ يُكلّمُ رسولَ اللهِ ﷺ ترْتطمُ الكلماتُ فى حلقه ارتطامًا وكأنّ صوته الرّعدُ ، قوةً وحدّةً .. إنّى لم أسمعْ صوتًا كصوتِه جهارةً وجفوةً .. إن له حنجرَة أعتقد أن اللّه لم يخلُق مثلَها منذ بدء الخليقةِ إلى الآن .. اعذُرنى يا أخى فأنا لا أقصدُ من هذا غيبة أو لمزاً وإنما أريدُ أن أقرّرَ حقيقةً واقعةً .. إنه يُفوّتُ علَيْنا الكثيرَ مما ينبغى أن نعلمَ من حديثِ رسولِ اللّه صلّى اللّه عليهِ وسلّم ، ويخيَل لى أن الرّسولَ صلواتُ اللّه وسلامه عليهِ يتأذّى بصوتِه ، ويضيقُ بهِ ذرعًا ، ولولا ما طُبِعَ عليهِ من كريمِ الخِلالِ ، وحَميدِ الخِصالِ ، لنَهره وآذاه .. و.. وقاطعه صاحبُه قائلاً :

- رويْدَكَ يا صاحِبى ، إنّنى لا أرى رأيكَ ، ولا أخالُكَ إلا مغاليًا قد ذهبَ بكَ الشّطَطُ مذهبًا لا أقرُّكَ عليهِ ، بل يجبُ أن تنزعَ عنه فى الحالِ ، فثابت بن قيس يا أخى رجلٌ جليلٌ له عذرهُ فى ارتفاعِ صوتهِ ، فهو صوتٌ جهوريّ قويُّ النّغمات ، فماذا يفعَلُ فى جهارَتهِ ؟.. هذا مَعَ أنّه رجلٌ أصمّ ، وأنّه يا صاحبى مهْما رفَعَ صوتَه يخيّل إليهِ أن المُخاطَبَ لا يسمع ولا يعى ما يقُول ، فهو لذلِكَ يحاولُ أن يُقنِعَ نفسَه بأن المُخاطَبَ قد سمِعَهُ وفَهِمَ منه .. وابن قيس من الّذين لا أرَى لهم مثيلاً فى الورَعِ والتّقوى والزُّهدِ والإخلاصِ .. فما تراه فيه ،



وتأخذه عليه ، ليس بضائره ولا يصحّ أن يلامُ عليهِ بحالٍ من الأحْوال ..

ولكن هذا الرّأى لم يرضِه فزمَّ شفتيه وقال :

- مهما يكُن من شيء فإنّي لا أنتقِصُ من قدرِ ثابتٍ ، ولكنّي أرى أنّه من الخيرِ لهُ وللرّسُولِ الكريمِ ، ولنا جميعًا ، أن يعتزل مجلسَ رسولِ اللهِ ﷺ ، أو يجلِس ولا يتكلّم ، أو يتكلّم بصوتٍ خفيضٍ يحاوِل على قدرِ الإمكانِ تهذيبَه . وفى عقيدتى أن هَذا لا يضيع عليهِ خيرًا ما ، بل إنّى على استعدادٍ لأن أعيدَ عليهِ كلَّ ما يقال فى مجلسِ الرّسولِ ﷺ بصوت يسمعه بوضوح ، وأكرّرُه مُبالغًا فى التّكرارِ حتى يفهمه فى يُسرٍ وسهولةٍ ، وأنا بذلِك زعيمٌ .

* * *

وحقًّا لقد كان رسُول اللّه ﷺ يتأذّى بصوتِ ثابت أحيانًا ، وكان ثابت نفسهُ يشعُر بشيء من ذلِكَ ، ويحاوِل أن يُخفِضَ من صوتِهِ ، خشْيَةَ أن يُؤذِى الرّسولَ الكريمَ وصحابَتِه ، ولكنّه كان لا يستطيعُ ، وكان كذلِكَ لا يستطيع البعدَ عن هذا المجلسِ الرفيعِ .. وكان يحس إحساسًا غامضًا يخشاهُ ويرهبُه ، ويحاوِل أن يصرِفَه عن قلبِهِ وفكرِهِ ، ولكن دونَ جدْوَى .. لقد كانَ يشعرُ أنّ أمرَهُ لابُدّ أن ينزِلَ فيهِ شيء من القرآن ، ولكنّه إذا نزل فيه قرآن فسينال منه . وسيجْرَح كبرياءَه .. ترى ماذا يفعَل إذا وقَعَ ذلِك ؟ لا .. يجبُ ألاّ يسبقَ الحوادِث .

وكأنّما أرادَ اللّهُ أن يُحقّقَ هذا الظّن ، أو يصدّق هذا الإحْساس الغَامِضَ فأنزلَ قولَه : ﴿ ولا تجهَرُوا له بالقوْلِ كَجَهْرِ بعضِكُم لبعضٍ أن تَحْبطَ أعمالُكُم وأنْتم لا تَشعُرونَ ﴾ !!

وقرأها الرّسولُ الكريم ، وحفِظَها المسلِمُون ، وقال ابن عباسٍ :







- « نزلت فى ثابت بن قيسٍ ، فهو جهوريُّ الصوتِ ، وفى أذنهِ وقرٌ ونبراتهُ حادةٌ .. وربما كان يُكلِّم الرسولَ صلواتُ اللّه وسلامه عليهِ فيتأذّى بصوتِهِ .. » .

وسمعَ ثابت هذه الآيةِ الكريمةِ : ﴿ ولا تجهَرُوا لهُ بالقولِ .. ﴾ فارتاعَ واضطربَ ، ونفذتْ إلى قلبهِ كما ينفُذُ السهمُ المريَّشُ ، ووقعتْ على رأسهِ وقوعَ الصاعِقةِ ، وصارَ يسمعُها تتردَّدُ فى أذنهِ فى قوةٍ وجبروتٍ ؛ فهوَ إذا قامَ رنَّت فى أذنيهِ ، وهو إذا سار رنَّتْ فى أذنَيهِ ، يسمعُها فى عنفٍ وقوةٍ ، فيكادُ يصرخ من الهول والأسَى واللوعَةِ . هو مؤمنٌ بقضاءِ اللّهِ وقدرهُ ، وهو يعلمُ أن هذا مُقدّرٌ عليهِ لا محالَةَ ، وأنه لا يملك أن يدفع الضرَّ عن نفسِه ، كما لا يملك جلبَ الخير لـهَا ، وهو يتمنَّى أن يوهَبَ له أذنان حادّتان مرهَفتانِ ، لئلا يفوته شىء من مجلسِ الرسولِ الكريم ، بل يتمنّى أن يكونَ بدنهُ كلُّه آذانًا مصغيَةً مصيخةً ، ولكنْ كل هذا من اللّه .

إذن ماذا يفعَل ؟.. هل يهجُر الناس ؟.. ويعتزِل رسول اللّه ﷺ ؟.. أم يجلِس فى المجالِس كالحجرِ المهمَلِ الّذِى لا حِراكَ بهِ ، ولا قيمَةَ لهُ ؟.. إن هذا فى رأيهِ الحلُّ الموفَّق .

ثم ماذا يكونُ جزاؤه ؟.. لقد آذى الرّسُولَ الكريمَ طِوال ذلك الزّمنِ قبل أن تنزِل الآيَة الكريمَة ، ويخبرُ اللّهُ عن ذلك ، أو فى الواقِع ينهَى عنـهُ معلِنًا أنّ من رفَع صوتَه فكأنّه آذاه .. آذى من ؟ آذى رسولَه وحبيبَه .. آذى صَفيّه ونبيّه .. ويا ويحَ ثابت .. ! ثكلَتْك أمُّك يا ثابت .. !!

وهكذا أخذَ يُردّدُ هذهِ الكلماتِ فى ثورةٍ ذاهلةٍ ، ونَقْمةٍ مخبولةٍ . ويُحدِّثُ بها نفسَه ، داعيًا عليها بالويلِ والثبورِ ، وعظائمِ الأمورِ ، وهو أشدُّ ما يكون ضيقًا وكربًا ، وغمًّا وهمًّا ، حتى كادَ يغمَى عليهِ !


﴿ ولا تجهَروا له
بالقولِ كجَهْرِ
بعضِكُم لبعضٍ أن
تَحْبطَ أعمالُكم وأنتم
لا تَشعُرونَ ﴾ .

ووقفَ حيران آسِفًا دامعَ العين ، واجفَ القلبِ ، مرتجفَ الفؤادِ يُقلّبُ يديهِ في حزنٍ بالغ ، وأسًى عميقٍ ، وقد جالَت في نفسِه عواطِفُ مضطّربة ثائرة ، حاولَ كتمانَها والتغلّب عليها ، ولكنّها استبدّت به استبدادًا أليمًا . لقد تدخّل الشيطانُ أخيراً ، وهو الذي يجري من ابنِ آدم مجرى الدّم .. ووَجَد في هذهِ الحالِ مَرعىً خصباً يمكنهُ أن يصِلَ مِنه إلى ما يُريدُ ، وينزَغَ فيهِ إلى هذهِ النفسِ الأبيّةِ الفاضِلةِ التي لا تَلِين ، هذه النفسِ التي طالما حاربَته ، وطعنته في الصّميم طعناتٍ نجلاء ، وهدمت آماله هدمًا ، وقوّضت أحلامَه وأحلام أتباعه وصحابَته تقويضًا . !

علامَ تحزنُ يا ثابت ؟.. لماذا تَنْقِمُ من نفسِكَ ؟.. إن كلَّ من يتأذّى بصوتِك هو الخاطئُ لا أنتَ ، ولماذا خُلِقتَ هكذا أصمّ الأذنَينِ يضايقُك ذلكَ الوقْر فيهُما إلى حدٍّ كبير ؟؟

ما هذِهِ الأوْهامِ التي تجرُّون وراءَها ؟ وما هَذا الّذِي تسمُّونه الرضاء بالقدرِ كيفما كانَ ، وحيثُما اتّفقَ ؟! .. فكّر يا ثابت ، إنّكَ في غمرةٍ من الهمّ والغمّ فانطلقْ إلى الرحابةِ والطلاقةِ والنعيم .. كن كأتباعي سادِرًا في اللذّة ، لاهياً في الحياةِ .. دعكَ من حياةِ الجدّ والتّعب والنّصبِ الّتي يحْياها هؤلاء المؤمنون . إنّ الحياةَ ساعةٌ من ساعاتِ الفرحِ والسرورِ ، فلماذا تبقَى هكذا ناقمًا على نفسِكِ داعيًا علَيها بالويلِ والثبورِ .. خالفْ .. ثُرْ .. اعصِ .. حطّم الأغلالَ والأصفادَ والقيودَ .. تحلّل من هذِهِ العهودِ وتلك المواثيقِ التي كبّلت نفسكَ بها ، ورضيتَ بهذا السجْنِ طائعًا مختارًا .. هيّا ..

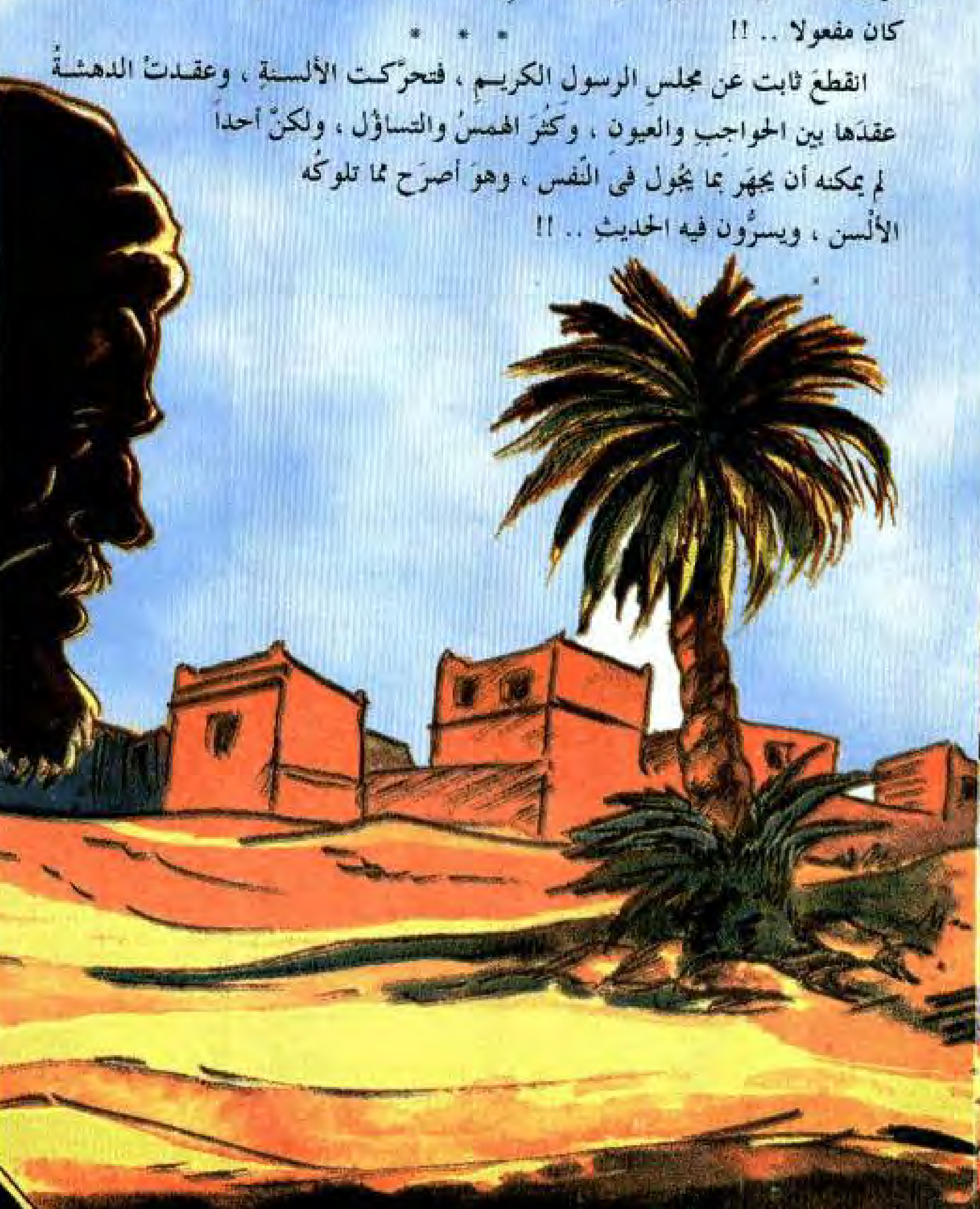
وانتبه ثابت إلى نفسِهِ عندَما بلغَ الشيطان منهُ هذا الحدّ ، واستعاذَ باللّهِ من الشيطانِ الرجيم ، وفاضتْ عيناهُ بالدُّموع .. دموع النّدمِ والتوبة من هذِه الغفلةِ التي نزَغَ إليه فيها الشيطان ، عدوُّه اللّدود ..



ووَجد فى الدّموعِ لذةً ، وفى النّدمِ متعةً فأخلَدَ إليهمَا ، وهو عاجزٌ عنِ تحديدِ موقفِهِ تمامًا ، ولكنّه عزمَ أخيرًا ، أن يعتزِلَ الصحابةَ والرّسولَ حتى يقضِيَ اللّهُ أمرًا كان مفعولا .. !!

* * *

انقطعَ ثابت عن مجلسِ الرسولِ الكريـمِ ، فتحرّكت الألسنةِ ، وعقدتْ الدهشةُ عقدَها بين الحواجبِ والعيونِ ، وكثُرَ الهمسُ والتساؤل ، ولكنّ أحداً لم يمكنه أن يجهَرَ بما يجُول فى النّفس ، وهوَ أصرَح مما تلوكُه الألسن ، ويسرُّون فيه الحديث .. !!





وتفقّد رسول اللّه ثابتًا ، وهو الّذى كان يلازِمُ مجلِسه فلَم يجده ، فعَجب لذلك ، وسأل عنْه ، فأُخبِرَ أنه بخير ، وكلُّ ما هنالِكَ أنه آثَرَ العُزْلةَ والخَلوَةَ إلى نَفْسِهِ ..

وجاءَ رسولُ الرّسولِ ﷺ يستقدِم ثابتًا ، فرَكضَ قلبُه بيَن جوانِحه ، واضطربَ فى حيرةٍ ودهشةٍ ، وهلعَ فؤادُهُ وشعرَ كأنما خُلِعَ من مكانهِ ، واستبدّ بهِ الخوفُ والهلعُ ، ولكنّ الرّسول الّذى أرسَلَه إليهِ رسول اللّه ﷺ طمأنه ، وأخبَره أنّه عليهِ الصلاة والسلام مشفِقٌ بهِ ، حدبٌ عليهِ ، يودُّ رؤيَته ، ليطمئنَّ عليهِ ، ويأنسَ بهِ ..

وهنا أُفرِخَ روعُهِ ، ثمّ فارقَهُ الخوف رويدًا رويدًا حتى مَلِكَ زِمامَ نفسِه ، وتوكّل على اللّه ..

ولما مثلَ بيَن يدَىّ رسولِ اللّه ﷺ ، سألَه قائلاً :

ـ لماذا اعتزلْتنا يا ثابت ، واخترتَ البُعدَ عنّا ؟!

فقال ثابت فى حزنٍ وأسى :

ـ يا رَسولَ اللّهِ ، لقَد أُنزلتَ إليكَ هذهِ الآيةِ ، وإنّى رجُلٌ جَهيرُ الصّوتِ ، فأخافُ أن يكونَ عملى قد حَبط .. !!

فقالَ ﷺ فى حنانٍ وعطفٍ :

ـ لستَ هنالِكَ ، إنّك بخيرٍ ، وتموت بخيرٍ ، وإنّك من أهل الجنة ..!!

* * *



وسَمِعَ الصحابةُ هذهِ البشرى الطيّبةَ مِنْ رسولِ اللّهِ لثابتَ ، فتمنّى كلُّ منهُم لو كانَ هوَ ثابتا .. لقدْ ضَمِنَ جزاءَه مُقَدمًا .. فهنيئًا لكَ أيُّها الأصمُّ العظيمُ ، الّذِي حَظِيَ باهتمامِ رسولِ اللّه وعنايَته ، ونالَ من اللّهِ جزيلَ الأجْرِ ، وعَظيمَ الثّوابِ ..

وكان في مجلسِ الرّسولِ حينَذاك صحابيّان ، لمّا سمِعا ما قال نظرَ أحدُهما إلى صاحبِهِ وكأنّه يقُول :

- ألم أُخبرْكَ مِنْ قَبْلُ ونحن في الطّريقِ إلى دارِنا بعدَ انصرافِنا مِن مجلسِ رسولِ اللّهِ ، بفضلِ ذَلِكَ الرّجلِ ؟.. ومعَ ذلِكَ فقدْ أصررتَ على رأيِكَ فيهِ ، ولكنّ اللّهَ أظهرَ الحقّ أخيرًا ، لا يقبلُ ريبةً ولا شكًّا ..

وتخاذَلَ الآخرُ أمامَ نظراتِ صاحِبِهِ وكأنّه يعترِفُ بخطأ نظريتهِ وخَطَلِها ، وفي تخاذُلِهِ معنَى الإنابَةِ والضّراعةِ والنّدم .

